

مكتبة الاخلاقيات الدينية

الكتاب السادس

الحكم على الطبع والنفس

تأليف الاستاذ لطفى ليفونيان

على النار
والتوسع
وا



ترجم عن التركية ونشر بعناية المطبعة الاميركانية

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٣١



مقدمة عامة

ان الحاجات المادية تشغل الناس في الامور الاقتصادية والاجتماعية فيعرض للافراد في حياتهم الذاتية وللملل في حياتها الاجتماعية كثير من المسائل المشككة . وهذه المسائل التي تبدو لنا فنظنها اقتصادية او ادارية محضة هي في الحقيقة مبنية على اساسات خلفية وروحية

انما حل هذه المسائل المشككة لا يتم الا في تجديد خلقي روحي ولكي يكون الناس اكثر سعادة واوفر افادة في حياتهم الذاتية والاجتماعية وجب عليهم ان يتبعوا من وجهة نظر جديدة هذه الاساسات الخلفية والروحية ويحققوا فيها لانها المسيطرة على امور الحياة

وغايتنا ان يحصل لنا الحظ والغبطة بان ندل على السبيل المؤدي الى اعلاء مستوى كل منا شخصياً وارثقاء بلادنا الى مستوى رفيع في الحياة متحررين الحقيقة من غير ما تحيز في هذه المواضيع الكثيرة الاهمية وهذه المبادئ التي هي بناء حياتنا الذاتية والاجتماعية

القوى الكامنة في الانسان

فطر الانسان مجهزاً بقوى كثيرة كبرى فالجنين مجموعة قوى عجيبة مملوءة بطبائع خفية . وهو يشبه بذور الشجر فكما كبر الطفل انكشفت قواه وظهرت اثمارها . فالشاب في الثامنة عشرة او العشرين من عمره يكون جسمه وفكره وروحه في حالة الفوران مثل القدر تجهش على النار ماؤها فيرفع البخار غطاءها طلباً للانطلاق والتوسع

والرجل الذي في من الكمال تظهر فيه طبيعة الثبات والمتانة والحنكة فلا يهيجه اقل شيء ولا يندفع في اي مهب اهواء حتى انه لو جمع قواه كلها على موضوع واحد تمكن من القيام باعمال عظيمة . والحاصل ان الانسان سواء كان طفلاً او صبيّاً او يافعاً او كهلاً فهو في كل حال مجهز بقوى عظيمة واستعدادات كثيرة

الحكم على النفس

واهم امر في امور الانسان هو احسانه ادارة هذه القوى والاستعدادات وضبطها . وهذا ما نسميه (الحكم على النفس)

القوة العظيمة التي في بطارية كهربائية لولا احسان الادارة والضبط كانت تبعث ناراً محرقة تخرب مدينة . والقوة الكبيرة التي لمياه النهر يستخرج منها منافع جمّة فتدير دواليب المعامل وتسقي الزرع ولكن هذه القوة المفيدة اذا لم نعتن بها وبضبطها واصلاح مجاريها فانها تطمو على القرى والاراضي وتحدث اضراراً جسيمة . وهكذا هي الطبائع والقوى الكامنة في الانسان المعدة لكل دور من ادوار حياته . ففي جسم وروح وفكر الانسان طبائع وقوى كثيرة عظيمة بامكانها ان تخدم المجتمع خدمات صادقة سامية ولكنها ان لم تكن تحت النظام والضبط تنقلب الى شرّ آلات مخربة ولذلك كان الحكم على النفس اهم مسألة

تعرض للانسان في كل دور من ادوار حياته حتى انها
بالحقيقة مسألة حياة الانسان او مماته.

في النزاع الدائم بين الطبع وما يتهدده من اخصام
الانسان معرض جسماً لهجوم الامراض والميكروبات
وهكذا هو ايضاً معرض فكرياً وروحاً الى ميكروبات شريرة
خطرة وربما تكون الاعداء المهددة الجسد اقل ضرراً
واخف خطراً من الاعداء التي تهدد حياتنا الروحية . لان
هذه الاعداء الاخلاقية التي تهدد الطفل والشاب والكهل .
الرجل والمرأة الكبير مثل الصغير هي تحيط به في كل
وقت وفي كل حال فاذا تركناها وشأنها بلا قيد ولا شرط
ولا ضبط لا تزول بل بالعكس تبقى وتنمو فتربي بالمرء
الى التهلكة والخراب لذلك وجب ان نجد بحاربتها
وازالتها

من الطبيعي ان يقع الانسان في حياته في بحران
اخلاقي وقد اصيب بهذا الاضطراب اعظم الناس واقدروهم
ارادة . ولكن المسألة الاصلية هي الموقف الذي تقفه امام

ذلك والاتجاه الذي ندفع اليه ارادتنا

الخلاصة ان الطبع هوشيء يمكن حفظه بجهاد حقيقي . وليس من ظفر من دون حرب . فظفر الطباع لا يتم الا بحرب اخلاقية

ليس برجل كبير ذلك الذي يندفع مع اية تيار ويميل مع اي ريج ومن كانت هذه حاله فليس بذي اخلاق . لان الانسان المحارب لاجل الاخلاق هو ذلك الثابت في ساحة الحرب العظيم القوي وهذا يظفر بالطبع الصالح فلذلك وجب علينا ان نملك مزية الحكم على نفوسنا

في مذهب الزاهدين والمعتزلين

قد اتخذ الناس طرقاً كثيرة وسلكوها بغية الحصول على الحكم على النفس وكان من اهم طرقهم هذه طريق الزاهدين (الدراويش) والمعتزلين النساك الذين رأوا

ان التغلب على اعداء الخلق لا يتم الا بالانقطاع عن الناس
 وبتجريد النفس في المناسك والزهد . وبشروا بمذهبهم
 وبالانزواء في زاوية او صومعة وبقطع جميع العلائق
 مع الدنيا معتقدين ان بذلك يتم لهم التغلب على النفس
 وقد عمَّ مذهبهم الشرق والغرب وكثر فيهما اتباعه
 وما عيش الرهبان في الاديار في اوربا في القرون الوسطى
 وفي اسيا وعيش الدراويش في الشرق والفقراء في الهند
 الا نتيجة هذا المذهب ومتفرع عنه . ان السالكين
 هذا المذهب يمتنعون عن الطعام والشراب والتجارة
 والصناعة وينزفون في راس جبل ام واد عميق ام
 ارض مقفرة او زاوية في معتزل (تكية) ومنهم من يؤذي
 جسده بالجلد بالسياط ومنهم من يحفون نفسه بمنعها مما تريد .
 وكانوا وما زالوا يوصون الناس باتباع هذه الامور لاجل
 التمكن من الحكم على النفس

ان هؤلاء اندفعوا في هذا المعتقد وسلكوه بدافع
 عقيدة مغلوطة لانهم فهموا غلطاً منبع الشر والفساد . هم

ظنوا ان الشر والفساد يصدر ينبوعهما من المحيط وحده .
 لذلك ظنوا انهم بقطع علاقاتهم مع المحيط الخارجي وباذية
 الجسد تحصل النفس على التهذيب والترقية . مع ان هذا
 الفكر من اساسه مغلوط . نعم انه لا ينكر ان في محيطنا
 شروراً كثيرة مما يمكنه ان يؤثر علينا . ولكن تغلب هذه
 الشرور علينا ناشيء عن انهما كنا بميولنا الباطنة .
 اصل الشر ليس في ظاهرنا بل في داخلنا

قد يحدث للانسان تجربة مثل يوسف ولكنه اذا لم
 يكن اسير ميوله الباطنة يبقى حاكماً كل الحكم على نفسه
 مثل يوسف ايضاً . ان ميكروب العدوى الجسدية يهجم
 من الخارج على الجسد فمتى كان الجسم مسلحاً بالقوى
 المضادة للمرض الدافعة له لا يتمكن الميكروب من الاضرار
 بالجسم . فالاعتزال والزهد لم يحلّا قضية الحكم على
 النفس

فلنسجن ما شئنا ذواتنا المدة التي نريد وفي المكان
 الذي نريد من دير او زاوية او منسك او صومعة

فذلك لا يمنع انهما كنا يمولنا وشهواتنا ولا يكتب لنا
الغلبة عليها

ان منبع الفساد ليس امراً خارجياً بل هو في رغائبنا
وحاساتنا. ان داخلنا مملوء من ميكروبات الميول الى الزنا
والفجور. والحسد. والطمع. والخداع وما شا كل ذلك من
الشُرور المعششة في نفوسنا. لذلك كان اصل المسألة ان
ننظف داخلنا ونحارب الشرور الباطنية بضبط النفس
وامتلاك الارادة والا فلا تكون العزلة والزهد علاجاً
مفيداً. وان اعظم اصحاب الاخلاق الحسنة لم يكونوا من
اولئك المعتزلين والزاهدين. ان عظمة الاخلاق وكبرها
ليس في الفرار من الحياة في الدنيا بل بالحكم على
النفس في القيام بالواجبات الانسانية وتحمل مسؤولية
العمل بين الناس

في منازعاتنا مع السيئات وفي الغايات السامية

ان الغاية التي يتوخاها الانسان من حياته هي نقطة

مهمة في بحث التنازع مع السيئات . فمن جرى وراء
 غاية صالحة سامية يحكي قلعة حصينة لا تقدر السيئات على
 فتحها . وبالعكس ذاك الذي يجري وراء غاية مافلة
 شريرة فانه تنتصر عليه السيئات ويخضع لسلطانها . وهذا
 هو نتيجة طبيعية لقوانين الانسانية . قلنا سابقاً ان كلاً
 منا يشبه مخزناً مملوءاً من القوى البشرية فالحرص الذي
 هو عدم القناعة احد مظاهر تلك القوى التي ليست في
 اصلها صالحة ولا شريرة لكن اذا اندفعت في مجرى
 صالح صلحت النتيجة . وان اندفعت في مجرى ميء
 ساءت النتيجة . فالمسألة الاصلية من نقطة النظر الانساني
 هي ان يحسن المرء توجيه طبيعته وميله الى غاية صالحة . ليس
 بالامكان ان نمحو ميولنا الغريزية التي هي بعض موجبات
 الحياة ونتائج التركيب الجسدي ولا ان نضغط على ميولنا
 المذكورة ضغطاً غير طبيعي . بل ما نبذله من جهد لمحو
 هذه الميول قد يحدث فينا اخلالاً في النظام الجسدي
 والروحي قد يؤدي الى جنون والجنون ليس من فقدان الميول

الطبيعية بل من سوء ادارتنا هذه الميول فنضيع التوازن
 كالربان الذي يفلت من يديه سكان المركب . بناء عليه كان
 لا بد من ان تجد هذه الميول مخرجاً لها فتعمل عملها
 وتتخذ مجراها

الغايات السافلة تضعفنا

ليس لنا في تدريب هذه الغايات سوى وجهتين .
 الاولى ان نحور رؤوسنا لاحكام الميول والشهوات ونخضع
 لها ونجاريها في مطالبيها السافلة كما فعل كثيرون ممن سلكوا
 هذا المسلك سواء كان عن علم او جهل فباتوا اسرى
 ميولهم عبيد شهواتهم محبين الذات عباد المال مغرورين
 بنفوسهم زناة غضابي حسودين على كل شيء طماعين بكل
 شيء مغتاضين من كل شيء متكبرين في كل آن محكومين
 من نفسانيتهم

فالبرهان على كون هذا المسلك لا يوافق الطبيعية

الانسانية وميولها هو كون هذا المسلك يودي الى محو
 شخصيتنا وهلاكنا . فالناس ليس فيهم من يريد عن
 قلب وميل ان يعاشر الطماعين والانانيين الذين ينفر من
 معاشرتهم حتى اقرب الناس اليهم عندئذ يبقى هذا الانسان
 وحده في هذه الدنيا فيقضي العمر معذباً لا يسر بشيء
 ومن كانت هذه حاله يكون قد اسرف باشد قواه وخيرها
 فيودي به سلوكه هذا الى الضعف وبالنهاية الى الموت .
 هذا الانسان يشبه من يضرم النار في مسكنه ويحرق
 ثروته فيبقى اخيراً بين خرائب العمر ملولاً حزيناً

الغابات السامية نقوينا

واما الوجهة الثانية لميولنا فهي استعمالنا هذه الميول في
 مقاصد وغايات شريفة صالحة . فالمرأة يمكنها ان تولف
 عائلة وتربي اولادها ويمكنها ان تبذل حنوها وشفقتها على
 المرضى والجرحى فتعالجهم او ان تهذب الاطفال في مكتب

او مدرسة فتعيش من عرق جبينها شريفة وتساعد اهلها ما
امكن من جناها الطاهر

والشاب كذلك فانه بدلاً من اضاءة صحته ونشاطه
في اسرافه في الشهوات النفسانية يمكنه ان يصرف قواه
في خدمة صالحة لوطنه وابناء جنسه . ان اكثر مشاهير
الناس ضبطوا قوى شبابهم فصرفوها في غايات سامية
مثلاً (اديسون) المخترع الشهير لما كان بعد صغيراً طالع
جميع الكتب المنظمة على رفوف مكتبة مدينة ديترويت
والبالغ ارتفاعها خمسة امتار

والشاعر الانكليزي (كيتس) المشهور لما كان
في الرابعة عشرة من عمره نظم الشعر وفي الحادية والعشرين
ارسل اشهر قصائده ونشرها

والفيلسوف الاميركاني فرنكلين لما كان في الثالثة
عشرة كان يقضي ليله بمطالعة القصائد والدواوين ثم صار
ينظم الشعر ويبيعه في شوارع بوستون

(روبرت فولتون) كان قبل السابعة عشرة من
 عمره رساماً وشاعراً وجفراً من كان في السابعة عشرة
 يطالع مدة احدى عشرة ساعة كل يوم
 والفيلسوف هربرت سبنسر اخذ شهادة الهندسة
 في السابعة عشرة من عمره وباسكال الفرنسي كتب
 في السادسة عشرة مباحثه الشائقة في الرياضيات وفي
 التاسعة عشرة اخترع الآلة الحاسبة . والاميرال نلسون
 قاد سفينة حربية اذ كان عمره ست عشرة سنة ونجّاهها
 والجنرال الفرنسي مونتكام والجنرال الانكليزي وولف
 اشتهرا في الحروب لما كان كل منهما في السادسة عشرة
 من عمره . وجان دارك المشهورة في دفاعها وحروبها عن
 وطنها ابتدأت بافكارها الوطنية السامية وهي في الثالثة عشرة
 من عمرها وجوزيف كونراد بعد ان كان بلغ الاحدى
 والعشرين من عمره وهو لا يعرف شيئاً من اللغة الانكليزية
 طالع وتعلم هذه اللغة وطارت شهرته في عالم الادب الانكليزي
 وغاليليو اتم تحصيل الطب في السابعة عشرة من العمر .

وهكصلي قرأ كتباً عديدة قبل بلوغه السابعة عشرة
 كثير من الموسيقيين والفنانين ابتدأت شهرتهم في
 التاسعة عشرة من عمرهم

هذا يدل على ان الانسان اذا ساق قواه الطبيعية
 في مسالك قومية يمكنه ان يعمل اعمالاً كبيرة مفيدة
 ويأتي بنتائج باهرة خارقة العادة

من الخامسة عشرة الى العشرين من سني الحياة خطر
 على الشاب حيث يكون تحت تاثيرات جسدية وعقلية
 وخصوصاً في حالات هيجانه . فلا بد اذن لكل شاب
 من اختيار احدى الطريقين المذكورتين

فاما ان تجري قوته وملكته في مجرى صالح او ان
 يدفعها في مجرى مهلك مؤدى الى الشر والموت . فكم من
 الشباب ذهبوا ضحية المقاصد المضرة السافلة مع انه كان
 بإمكانهم ان يستفيدوا علماً وفناً لو سلكوا المسلك الآخر
 فسيعد هو ذلك الشاب الذي يجد في هذا العمر لنفسه
 مبيلاً صالحاً ليسلكه ويدفع جميع قواه النفسية الى ذلك

الهدف السامي وبوجه نظره فيحكم على نفسه ويتسلط
على ميوله ويضبطها

حاذر عشراء السوء

المعشرة مسألة مهمة اخرى لان تأثير المعاشرة والمحيط
على سجية المرء مهم جداً . فمن المعاشرة ما يرشد الانسان
الى سواء السبيل ومنها ما يخرج به عن هداه فيضل
ليس سهلاً على الانسان ان يقاوم ميله الى شرب
الخمر لما يرتاد مجالس السكارى ويعاشرهم . ان كثيراً
من المبتلين بداءة الشرب كانت بداءة شربهم كامساً واحدة
شربوها اكراماً لخاطر صديق الخ عليهم فما شاءوا
مخالفته

ان الشرط الاول ليتمكن المرء من الحكم على نفسه
هو الابتعاد عن عشراء السوء وقطع علاقته المضرة بهم .
فاحذر عشراء السوء والكتب والجرائد والصور
والحكايات والروايات والمناظر المفسدة فكم اثرت فينا وفي

اخلاقنا الامثلة والحكايات الرديئة التي كنا نسمعها في
 طفولتنا والقصص التي كنا نطالعها في الخفاء في المدرسة
 ان امثال هذا من الامور يفسد تخیلاتنا ويسم افكارنا
 ويضعف ارادتنا فلا تقوى على ادارة ميولنا والتحكم
 عليها

فكل كتاب مفسد نقراه وكل كلمة شريرة نسمعها
 وكل رسم رديء ننظر اليه تفتح في سور حاكمتنا على
 نفسنا ثلثة وتحدث فيه تهدماً

احسن انتخاب معاشريك

ولكن هذا وحده لا يكفي لان الحذر من الشر
 لا يكفي لوحده لوقاية الاخلاق بل مع الاحتراز من
 الشر يجب الاتجاه نحو الخير

ليس في العالم فراغ ولا يمكن ان يكون فراغ . فاذا
 افرغت محلاً من المادة يملأه الهواء واذا طردت من فكرك
 بعض الميول المضرة تجده امتلاً حلاً بميول اخرى وربما

تهاجمه ميول اكثر ضرراً وادنى شرفاً فما تكاد تنجو
من عدوّ والا تقع في يد عدوّ اشد

لذلك كان السبيل الاقوم للتخلص من الشر هو
الاتجاه نحو الخير واعتناقه وليس فقط طرد الشر والابتعاد
عنه . ان سبيلك لتتخلص من الظلمة هو فتح النوافذ
التي لجهة الشمس . والتخلص من الهواء الفاسد يتم بتنشق
الهواء الطاهر فاتجه الى الخير يهرب الشر من تلقاء نفسه
اقتبل النور فيندفع الظلام . هذه هي حقائق راهنة
واساسية في ظهور السجايا واكتشافها

ان الصحة الجيدة انما تكون لمن يعيش في الهواء
النقي والمأكول المغذي والرياضة الجيدة وهكذا السجية
الصالحة فانما تكون في المعاشرة النزيهة والفكر المذهب
والاعتقاد المفيد . لا يكفي بان تجتهد بان لا تعمل
شراً بل يجب عليك ايضاً ان تداوم على التماس مع الخير
ومرافقته وان تكون صالحاً وان تتأدب بادب الصالحين
الحسني الاخلاق

ان شباناً كثيرين خربت اخلاقهم وساءت بسبب
 انهم كانوا من صغرهم يعاشرون الاردياء الخلق ويسمعون
 كلمات بذیئة ويطالعون كتباً مضرّة فسهيد ذلك الذي
 يولد في احضان عائلة صالحة وينمو في محيط صالح
 ويدرس في مدرسة صالحة ويعاشر اشخاصاً صالحين

اعتد العادات الصالحة . وكن نجيب الاطوار

من المسائل الهامة في باب الحكم على النفس مسألة
 اكتساب العادات الصالحة فمن لم يعتقد على العيش المستقيم
 وعلى الافكار النزیهة القویة تغلب علیه حالاً اهواؤه
 فلا یمكنه ان یحكم على نفسه وبالعكس من یعتقد المعاملات
 القویة والافكار المصیبة الصالحة فانه یصعب جداً على
 اهوائه ان تستمیله

فكما ان الانسان الذي یعتقد العیشة في الهواء
 النقي والغذاء المفید النظيف یمكن صحته ان یقاوم هجوم
 الامراض هكذا من یعتقد طهارة الخلق تكون روحه

قادرة على مقاومة الاخلاق الفاسدة . فلتكن اطوارنا
 قوية ونجيبة ولطيفة . ولا نكون سريري الغضب حمقى .
 ولنجتهد بان نفسر الامور لجهة مفيدة صالحة عوضاً من
 تفسيرها لجهات شريرة . ولنصبر على من يسيء الينا
 ولنقابل الدعاء الشرير بالدعاء الصالح وفي معاشرتنا
 للناس يجب ان نبتعد عن اثاره الخلافات والمنازعات
 وان نكون وياهم في محبة وانتظام . ولنكن انموذجاً
 للحلم والتواضع ولا تكبر ولا نفتر بانفسنا . والحاصل
 فليعقب من اخلاقنا واطوارنا اريج الظرف والحلم والصبر
 واللفظ حتى اذا اعتدنا هذه العادات الصالحة فتحكم
 على انفسنا

فلتكن تصوراتك نزيهة

كذلك لنعتقد على التصورات النزيهة والتخييلات
 الادبية لان اصل ينبوع الشر هو التصورات والتخييلات
 الباطنة . وليست الافعال الا ثمار هذه التصورات . لهذا

السبب كان اهم ما يجب علينا هو الانتباه الى احوالنا
الداخلية وتهذيب الباطن . فعلى ان نعتاد طرد التصورات
الرديئة ونقبل الصالحة

ان الانسان قبل ان يرتكب جناية القتل يمتلئ من
حاسات الغضب والحقد والعداوة وكثيراً ما يكون
فعل القتل متولداً عن هذه الحاسات . ان الساقطين في
معصية الزنا والفحش انما يبتلون اولاً بالتصورات والميول
الى هذه فيتخيلونها اولاً ومن ثم تغلب عليهم التجربة .
ان كل انسان قبل ان يعمل الشر فعلاً يعمل تصوراً
ولذلك يقع سريعاً في يديه . فمن هذه الايضاحات
يظهر انه يلزمنا ان تغلب اولاً على تصوراتنا وميولنا
الباطنة

ومن العبث ان نتمكن من الظفر الخارجي على هذا
العدو بعد ان يكون هو تغلب علينا باطنياً . بناءً عليه
فلنعتد على الافكار والميول والاحساسات الصالحة

إذا رغبت أن تظل بعيداً عن الجناية عارفاً
عداءاً وشرّاً بل بالعكس اضمم الصداقة والمحبة للجميع .
عندئذٍ لا يفعل منك احد . وإذا رغبت أن لا تسقط
في الفحش والزنا فانظر لمن حوالياً بعين نقيّة وقلب
ظاهر

مثال

اخرج معلم تلاميذه ذات يوم مثلج وامرهم بأن
يركضوا على الثلج واعدّ بجائزة لمن يترك وراءه خطأً
مستقيماً في الثلج فاخذ الطلبة كلهم يركضون حتى
صدر الامر بالوقوف فوققوا ولما التفتوا الى الوراء رأوا
أن كلاً منهم قد ترك خلفه خطأً كثير الا عوجاج الا ان
واحداً ترك خطأً مستقيماً فسأل المعلم الطلبة عن كيف
كانوا يركضون فاجابوه انهم كانوا ينظرون الى ارجلهم
مجتهدين أن يركضوا على خط مستقيم وقد تعجبوا من
عدم تركهم أثراً مستقيماً

١١ . كل مسيل مسي عارابجا رالافاجب انه انخذ
 الشجرة التي امامهم هدفا وسدد اليها خطاه فتمكن من
 ترك اثر مستقيم وراءه على الثلج

النتيجة

اذا اردت ان تربح جائزة الاخلاق فسد خطاك
 الى هدف عال شريف